وما يطلب بها من الأغراض، وهى فضلا عن قصورها تختلف باختلاف الأقطار بل الأقاليم المتقاربة، فلهذا لا تصلح أن تكون لغة عامة، ومن السخافة أن تتخذ لغة قاصرة غير وافية لا يفهمها إلا عدد محدود وأن تهجر لغة عامة يفهمها كل أحد فى كل بلد. ومن السخافة أن نقتل لغتنا العربية التى خلف لنا أصحابها كل هذه الكنوز فى الأدب والعلوم والفلسفة والتاريخ وغير ذلك من أجل لغة لا ماضى لها ولا حاضر أيضا، لأنها غير ثابتة وتحولها دائم مع ارتقاء التعليم وانتشاره، ولا مستقبل لها كذلك إلا الاندماج فى اللغة العربية الفصحى بفضل تقدم التعليم وانتشاره كذلك. ولكن هذه العامية التى لا تصلح أن تتخذ أداة الكتابة عربية الأصل وإن كان فيها كثير من الدخيل من لغات أخرى بحكم اتصال الشعوب بعضها ببعض وأخذ بعضها عن بعض، ولهذا يحسن الانتفاع بما فيها من العربى الصحيح وإن كان محرفاً قليلا. ويجب لهذا الغرض أن نعنى باحصاء الألفاظ العربية فى العامية وأن نردها إلى أصلها إذا احتاج الأمر إلى ذلك وأن نستعملها ونستغنى بذلك عن البحث العقيم عن ألفاظ أخرى بدلا منها فيما مات من ألفاظ اللغة العربية وعجز عن البقاء. وفى العامية فضلا عن ذلك تعابير مثلها غير موجود فى العربية، أو موجود ولكنه غير سائغ لا يقبله الذوق العام، فهذه يحسن اتخاذها أيضاً وإغناء العربية بها فانها بذلك تتسع وتلين وتكتسب المرونة اللازمة. فيحس ابن اللغة وهو يستعملها أنها أداة حية نابضة لا جامدة ناشفة.

وأظن أنى بعد هذا لا أحتاج أن أقول إنى لست عدواً للعامية أو سواها؛ وقد يساعد على نفى هذا الوهم أن أذكر أنى استعنت بها فى الحوار فى بعض ما كتبت من الروايات أو القصص بالقدر اللازم ليس إلا — استعملتها فى هذا النطاق المحدود فى روايتين على الخصوص رواية ابراهيم الكاتب ورواية تمثيلية اسمها «غريزة المرأة أو حكم الطاعة» ولكنى التزمت حدوداً معينة لم أتجاوزها. ولا يحسب أحد أني أريد الاعلان عن هاتين الروايتين فقد نفدتا من زمان طويل.

ابراهيم عبد القادر المازنى

في سبيل الإصلاح

المشـــكلة الـكبرى
فى حياتنا الاجتماعية
للأستاذ على الطنطاوى

«أعد الأستاذ هذا البحث ليحاضر به الناس فى ناد من أندية دمشق الأدبية، ولكن مرض الكاتب ولبثه أربعين يوماً فى المستشفى، ثم اضطراره إلى السفر العاجل ليتسلم عمله فى مدرسة بعقوبة (العراق) حال دون إلقائه»

صورة المشكلة

آلاف مؤلفة من الشبان يبيتون مسهدين ينتظرون أزواجهم اللائى خلقهن الله لهم. وآلاف مؤلفة من الشابات يبتن الليل مؤرقات ينتظرن أزواجهن الذين برأهم الله لهن والذرارى تطل من شرفة الغيب ترقب تعارف أبويها، لتأخذ باذن الله، طريقها إلى عالم الوجود، فيكون منها عباد لله صالحون، وجنود للوطن مخلصون، وأنصار للحق ثابتون

ثم إذا قدر الله وكان زواج، كان الزواج (أكثر ما يكون) همًا ونكداً، وخلافاً مستمراً، وآض البيت من بعده جحيماً محرقاً، وسجناً مظلماً، ونشأ الأولاد على غير تهذيب، ومن غير دين ولا أخلاق ...

هذه هى صورة المشكلة: انتظار أليم يسلم إلى الجنون أو إلى الفسوق أو إلى الأمراض، ونقص فى الأولاد، وضعف فى الأمة، وخراب البيوت، وضياع للأسر، وفقد للسعادة ...

سبيل العلاج

هذه هى صورة المشكلة، فما هى أسبابها؟ وما نتائجها؟ وما علاجها؟ بل وما نفع الكتابة فيها؟

لقد كُتب فيها وكُتب (حتى لو أن محصياً أحصى المكتوب فيها لجاء معه كتاب ضخم) فلم يُغن المكتوب شيئاً، ذلك أن المشكلة تحتاج إلى حل عملى يقوم به الآباء، لا إلى نظريات وفلسفات يدلى بها الكتاب والأدباء، من أجل ذلك عكفت فى

هذا البحث نحو العمل فلم أتعمق ولم أتفلسف ! ومن أجل ذلك ضربت من الواقع أمثلة ، وأخذت من الحياة شواهد وصوراً ... على أنها لا تغني المباحث ، ولا تجدي الشواهد ولا الصور ، ولا المقترحات ولا الآراء ، ما لم يحققها عقلاء الآباء ، أو من لهم في الأمة أمر أو نهي ، من أرباب الحكم وأصحاب السلطان !

موانع الزواج

لو سألت أكثر العزاب من الشبان : « ما منعكم من الزواج ؟ » لكان جواب الأكثرين إن لم أقل جوابهم أجمعين : « المهر ، وما يتصل بالمهر من تكاليف وبلايا » ، ولست أذهب بالقارئ إلى بعيد ، بل أضرب له المثل من نفسي ...

أنا أريد الزواج ، وأنا امرؤ في رأسه أشياء وليس في كيسه شيء ... أما الذي في رأسي ، فقد أفنيت في تحصيله شبابي ، وبيضت في طلبه لياليّ وسوّدت نُهُري ، وخدعني عن حقيقته معلمٌ خبّرته أثمن شيء في الوجود ، وصدقت أن العلم خير من المال ... فرأيت من بعد أن المال خير من كل شيء ... وأما كيسي فما فيه وفر ، ولكن فيه مرتباً يكفيني ويكفي بحمد الله أربع زوجات معي ، لو أن الزوجة بقيت إلى اليوم شريكة الحياة وربة البيت ، تطلب حياة هنيئة وزوجاً صالحاً ، بيد أن هذا كله قد ذهب ... وصارت الزوجة (يا أسفي !) متاعاً يشرى ، ولا بد للمتاع من ثمن ، فاذا أخذ الأب الثمن لم يبال بعده شيئاً ، ومتى كان يبالي التاجر إذا استوفى الثمن بأخلاق الشاري أو سيرته في أهله ؟ وثمن الزوجة (أقل ما يكون) خمسون أو مائة (ليرة) ذهبية ، فتصور يا صديقي القارئ متى تجتمع لرجل مثلي مكساب متلاف لا يستطيع أن يمسك شيئاً ، أو لا يفضل عن نفقته شيء؟ وليست هذه المصيبة كلها . إن بعدها نفقات العقد (الكتاب) وقبل العقد خاتم الخطبة ، وما يكون إلا من الذهب ، و (الشبكة) وما يصلح لها إلا حلية لها قيمة ... وبعد العقد الهدايا واللُّطَف يحملها إلى دار (الزوجة العتيدة) كلما زارها ، ولا بد له من أن يزورها ؛ ثم تأتي بلايا العرس ، وما أدراك ما بلايا العرس : كسوة أهله وأقربائه ممن تجب عليه نفقتهم (وكسوة النساء أقبح التبذير ، لأنهن يشترين قماشاً لا يدفئ ولا يستر ، ويدفعن ثمنه غالياً ، ثم إذا مرت شهور بطل طرازه (مودته) فأصبح لا يصلح لشيء . . . وبعد الكسوة نفقات حفلة الزفاف . ثم إذا دخل على زوجته ، وانفرد بها ، لا تكلمه حتى يدفع إليها (ثمن شعرها) وهي جملة من المال لا تقل عن (بضع ليرات ذهبية) ولا حد لزيادتها ، وما أدري والله كيف تنزل الفتاة للحلاق عن شعرها يقصه ويلقيه على الأرض ، ثم تطلب (ثمنه) من زوجها ؟

ثم إذا أصبح أعطاها (وجوباً) عطية أكبر من (ثمن الشعر) هي (الصُّبْحة) ، فاذا زال النهار أهدى إليها هدية ، لا بدّ أن يكون فيها إزار للحمام ثمين وقد يكون منسوجاً بخيوط الفضة ، ومناديل (مناشف) الخ . . . ثم تأتي نفقات (السبعة الأيام) يقيم فيها الأقارب والأهلون في داره ، تولم لهم كل يوم الولائم ، ويطرفون بأنواع الطرف ، فاذا انتهت دعوا جميعاً إلى الحمام ، وقد قلّ ذلك في هذه الأيام منذ كثرت الحمامات في الدور ، وأهملت الحمامات العامة أو كادت ، ثم يدعو أهلها (أي أهل الزوجة) جميعاً وأهله إلى وليمة كبيرة تسمى (التعريفة) يعرّف فيها بعضهم ببعض — وقد يبلغ المدعوون إليها المئات في بعض الأسر الكبيرة . . .

فأنى لمثلي الطاقة على هذه المصروفات التي تخرب بيوت الأغنياء ؟ وإني لأعرف قاضياً شرعياً زوّج ابنه ، فتكاثرت عليه النفقات ، فلم يقدر عليها حتى باع بيته — لينفق ثمنه في ليالي العرس ! هذا أول موانع الزواج وأظهرها . . .

الحجاب

وهب أني قد وقعت على كنز ، أو أصبت إرثاً فأصبحت غنياً وتوفر لي ما أبتغي من المال فكيف أختار زوجتي ؟ أما الحاسرات المتبرجات اللائي يعرف الرجال كلهن : صدورهن ونحورهن وأيديهن وسوقهنّ ، فأنا (بحمد الله) أعقل من أن أتخذ منهن زوجة ، ولو كانت ابنة ماء السماء ، وأعلم للعلماء ، وما أحسب ذا دين ومروءة ، يرضى أنه يتزوج بمن رضيت لنفسها إهمال الدين ، وإسقاط المروءة ، بتعرّضها في زينتها وفتنتها الرجال ، تستهويهم وتأخذ بأيديهم إلى النار . . . بقي عليّ المتحجبة من بنات الأسر ، وهي التي لا سبيل إلى رؤيتها إلا ليلة الزفاف ، بعد أن يكون الغلّ قد استدار حول عنقي ، والقيد قد أحكم إقفاله على يدي ورجلي ، ولم يبق لي إلا أن أقبل

بها ولو كان لها وجه قرد وأخلاق شيطان !

أفهذا من المعقول ؟

يريد المرء سفراً ، فيتحرى عن أخلاق رفيقه أياماً ، ليعلم أيوافقه أم يخالفه ؟ ويبتغي أجيراً فيراه ويبحث عن أصله وفصله ، ويجرّبه أياماً ؟ ويعزم على أن يتزوج ، فلا يرى رفيقة حياته ومهوى قلبه ، وموضع حبه ، إلا بعد أن يتمّ كل شيء ؟

مع أن الشرع أباح له أن يراها ويجالسها[1] . . . ومع أنها تخرج إلى السوق فيراها (على خلاف الشرع) البائع ومن كان عنده ، ويقدّم إليها القهوة ويحادثها ، ويراها عمال السينما ، ويراها ويراها ، فما الذي حاق بالآباء حتى هان عليهم كل محرّم ، وصعب عليهم ما أحلّ الله ؟

هذا هو المانع الثاني من موانع الزواج ، بل إن هذا الوضع هو الذي سبب ما نرى من تبرج النساء وحسورهن ، وعريهن على السواحل . . . ولا علاج له إلا بحجاب شامل (وذلك ما لا يستطاع) أو بسفور شرعي ، كالذي سماه صديقي الأستاذ عز الدين التنوخي بسفور الراهبات ، وذكر أن الحشويين الجامدين ، يقابلون من يدعو إليه بالسباب والشتائم ، وذلك هو الواقع ، فإن هؤلاء قاعدون بالمرصاد لكل من يعرض رأيا في إصلاح حال المرأة الذي كاد يصل إلى حدّ العرى المطلق بل لقد بلغه فعلاً . . ولكنهم لا يأتون بأي رأى من عند أنفسهم ، ولا يهتمون بما يرون ، فهم هادمون ولا يبنون ، وهم مفسدون لعمل كل مصلح ولا يصلحون . . . ولله الحمد على أن ضعفت مُنّتهم ، وخفتت أصواتهم ، وبادت جماعتهم ، ونسأل الله أن يبدلنا بهم علماء يفهمون روح الإسلام ويعرفون حقائقه ، ويفهمون روح العصر ويعرفون حاجات أهله

الخوف العائلي

فإذا يسر الله لامرىء سبيل الزواج ، وأنجاه من هذه الموانع ، عرضت له مشاكل ، ورأى من المتاعب ما يندم معه على ما أتى ، ولو ذهبت تتقصى أحوال المتزوجين ومشاكلهم في بيوتهم لوجدت أكثرهم متألماً شقياً ، ولهذا الألم أسباب يمكن تلافيها لو صبر الزوج ، وعزم على التلافي .

[1] أي يراها غير حاسرة ويجالسها غير منفرد بها

أول أسباب الخوف

أعرف أخوين : أما أحدهما فشيخ محافظ توفى رحمه الله من سنين طويلة ، وأما الثاني فأديب موسيقي على الطراز الجديد . تزوج الأول ، ولبث مع زوجه ستة عشر عاماً حتى توفي عنها ولم يكلمها على مسمع أهله كلمة ، وإنما كان يوجه الكلام إلى أخته سائلا حاجته ، أو يأمر أخته أن تقول لها ما يريد ، وألفت ذلك منه ورضيت به أو صبرت عليه . وكانت تخشاه تخشيتها الله أو هي أشد خشية . . وأما الثاني . . لا . بل إن أكثر من عرفنا من الأزواج (المجددين) تتحكم بهم نساؤهم ، فيأمرنهم وينهينهم ، ويشتمنهم و . . ويضربنهم ! وهم يخافونهن ولا يجرؤون عليهن . .

أي أن الأزواج بين رجلين ، رجل أعمل سلطته ، وأسقط عاطفته ، فكان في بيته سيداً ، ولكنه لم يذق طعم الحب ، ولا عرف السعادة الزوجية ، ورجل تبع عاطفته فأرضاها ، وأهمل سلطته فأضاعها ، فعاش في داره عبداً . . ، وتفصيل ذلك أن الزوج هو الذي يحكم على نفسه ، ويختار طريقه . فإذا دلل زوجه في الأيام الأولى ، ومثل لها (دور العاشق في الروايات الخيالية ، ومنحها قياده ، وأراها أنها حياته ، وأنها الآمرة الناهية عليه ، وتذلل لها وخضع ، (ولذة الحب في التذلل والخضوع) ألفت ذلك منه ، وتعودته . . فإذا طارت من رأسه سكرة الحب ، وأحب أن يحكم في الدار ، كما يحكم رب الدار ، وجد الأمر قد أفلت من يده ، فيبدأ الخلاف ، ثم لا ينتهي أبداً . وإذا هو ضبط نفسه في الأيام الأولى ، ولم يعط إلا بمقدار واستعمل عقله وسلطانه ، ألفت منه الزوجة ذلك ، فوجدت كل عطف منه بعد ذلك غنماً كبيراً . .

فالزوج العاقل الحازم من لم تلهه حلاوة العسل التي تدوم له شهراً ، عن مرارة العلقم التي تبقى دهراً طويلاً . ومن لم تشغله اللذة الجسمية العاجلة ، عن السعادة الروحية الآجلة ، فليتنبه لهذا الأزواج ، فمن هنا منشأ الخطر . .

عصور الزوجين

ومن أسباب النكد البيتي ، والشقاء الدائم ، الخلاف ...

حقوق كل واحد من الزوجين ، فمن الرجال من يأخذ أكثر من حقه ، ومن النساء من تقيم نفسها مقام الرجل ، وتفرض عليه سلطانها ، حتى إن الرعناء لتسأله : أين كنت ؟ ومن كلمت ؟ بل إن من النساء الخناوات المتحذلقات ممن يحسبن أنهن متعلمات، من تحاسب زوجها على زيارته أهله ، وصلته رحمه ، وتثار عليه إذا كلم عمته أو زارها . . حتى أصبح الأمر فوضى لا نظام له وظلمة لا نور فيها : مع أن الشرع الاسلامى (الذى لم يغادر صغيرة ولا كبيرة ، إلا بين وجه الحق فيها) قد حدد حقوق الزوجين ، فجعل من حقوق الزوج على زوجته أن تطيعه فيما لامعصية فيه ، وأن تصون عفافها ، وألا تخرج إلا باذن منه أو لضرورة ، وأن تحرص على إدخال السرور عليه ، وألا تكلفه مالا يطيق ولا تطالبه بالزائد من حاجة نفسها ، وأن تبذل جهدها فى أداء واجباتها الدينية ، وأن تطيعه زمام الرياسة المنزلية. ومن حقها عليه أداء مهرها كاملا إليها ـ الانفاق عليها بالمعروف ـ أن يجتهد فى تعليمها واجباتها الدينية ـ أن يكتم سرها ولا يتحدث به ـ حسن خلقه معها — احتمال بعض الأذى منها — ممازحتها ومداعبتها [1] — أى أن للرجل على الجملة رياسة المنزل (حين لم يكن بد لكل شركة أو جماعة من رئيس) وله السيادة فيه ، وحفظ كرامته ، وإدارة شؤونه الخارجية والاشراف على أموره كلها ، وله الحكم فى كسوة المرأة وخروجها ، وله تأديبها بالعدل ، ومن غير أن يخرج على ما أحل الله وذكر فى كتابه ، وللمرأة حق التصرف بأموالها ، وإدارة شئون المنزل الداخلية ، والنفقة عليها وضمان حاجاتها اللازمة؛ ولها عليه أن يحرص على سعادتها وسرورها ، ويعاملها بالخلق الحسن ، والقول اللين ، ويتغاضى عن خطيئاتها ما أمكن التغاضى ، ويعلم أنها شريكة حياته ، وأدنى الناس إليه فلا يستأثر دونها بطعام أو شراب ، ولا يدعها فى المنزل وحيدة متألمة ، ويسهر فى القاهى واللاهى ، ولا يقدم نفسه عليها فى كسوة أو متعة من متع العيش

المشاكلة بين الزوجين

وإن من أظهر الخلاف بين الزوجين ، ألا يكون بينهما مشاكلة ومماثلة ، كأن يكون فقيراً وتكون هى غنية ، فتعيره بفقره ، وتترفع عليه بمالها ، أو أن يكون من رجال الأعمال ، وتكون متعلمة ، على أن المتعلمة العالمة حقاً لا ينتظر منها إلا كل خير ، ولكن البلاء فى هؤلاء اللائى يحسبن أنفسهن متعلمات ، لأنهن كن قبل الزواج معلمات فى مدرسة أو مديرات ، وإن كن لا يفتحن فى السنة كتاباً ، ولا يفهمن شيئاً ، ولا يعرفن إلا تنكيد حياة الزوج ، وإضاعة ماله فى الولائم والاستقبالات ، والكسوة والزينة ، هؤلاء هن البلاء الأزرق ، وخير منهن الأمية الجاهلة.

ومن أشنع أشكال الاختلاف بين الزوجين ، حال من يتزوجون بالأجنبيات ، فيرون منهن (على الغالب) ما يتمنون معه الموت الأحمر . وإنى لأعرف من الناس رجلا درس فى فرنسا وجاء معه بفتاة زعم أنها من أكرم الأسر الفرنسية ، أعرفها ، فتزوج بها ، فكان من أيسر ما تصنع أنها تذهب إلى السينما فترى الضباط الفرنسيين فتحن إليهم بصلة الدم ، فتكلمهم وتصادقهم ثم تدعوهم إلى دارها فلا يروع صاحبنا إلا الضباط قد ملأوا بيته. ثم انتهى أمرها بالفرار مع واحد منهم !

ومن العجب أن دماغين كبيرين توادت خواطرها على مسألة واحدة ، وبينهما الدهر الأطول ، وبينهما ما بين المشرق والمغرب فوقعا فيها على الصواب الذى نعرفه ولا نريد أن نتبعه :

لما كانت القادسية ، ولم يجد الناس نساء مسلمات ، تزوجوا نساء أهل الكتاب ، فلما كثر المسلمات بعث عمر بن الخطاب إلى حذيفة بن اليمان بعد ما ولاه المدائن : « بلغنى أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن من أهل الكتاب فطلقها » فكتب إليه : «لا أفعل حتى تخبرنى أحلال أم حرام، وما أردت بذلك؟ »

فكتب إليه عمر : « لا ، بل حلال ، ولكن فى نساء الأعاجم خلابة ؛ وإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم »

فقال حذيفة : الآن ! وطلقها .

هذا حكم الرجل العظيم ، عمر ، وقد حكم به فى المدينة منذ ألف وثلاثمائة سنة .

وأما الثانى فحكم الرجل العظيم موسولينى ، حكم به المؤتمر الفاشى فى روما ، فى هذا الأسبوع ، حين كان من مقرراته منع الايطاليين من الزواج بالأجنبيات

فمن لم يعظه قول عمر ، فليعظه حكم موسولينى !

« البقية فى العدد القادم » دمشق على الطنطاوى

(١) حقوق الزوجين للأستاذ الشيخ محمود ياسين